مجلة الآداب واللغات، المجلد 21 ، العدد 1، 2021، ص:89 –95

مجلة الآداب واللغات
جامعة أبي بكر بلقايد،تلمسان / الجزائر
ISSN : 2676-1963/ EISSN: 2676-167X
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/416

"أدبية المقال الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي"

"Literary article reform with Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi"

حياة عمارة*،جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان،الجزائر. hayeteamara1968@gmail.com

تاريخ المقال

الإرسال:2021-05-19 القبول:2021-06-12 النشر :2021-10-28

الكلمات المفتاحية

المقال الإصلاحي
الأسلوب الأدبي
الإبراهيمي
الالتزام

تعدّ المقالة الأداة التعبيرية الأولى الّتي استعملها المثقّفون الجزائريون على اختلاف مشاربهم و اتّجاهاتهم الأدبية، فكانت بذلك الصّلة الوثيقة الّتي ربطت بين الطّليعة المثقّفة والطّبقة الشّعبية. و كان أدب المقالة يدور في فلك الإصلاح و السّياسة و الدّفاع عن مصالح الشّعب و المطالبة بها، ويؤكّد في مضمونه معنى أساسيا – يمثّل جوهر المعركة الإصلاحية - وذلك بالدّفاع عن الإسلام و اللّغة العربية والشّخصية الوطنية وترسيخ هذه المقوّمات في نفوس الجزائريين. وقد عرفت بداية العشرينيات من القرن الماضي كتّابا مرموقين يعدّ بعضهم في طليعة كتّاب العربية في العصر الحديث من أمثال الشّيخ البشير الإبراهيمي الّذي ملأ الجزائر بمقالاته الأدبية ذات الأسلوب الأنيق. فهي تمثّل نموذج المقال الأدبي الإصلاحي بأجلى صوره، فقد كان الشيخ الإبراهيمي يجمع بين العناية بالصّياغة و بين التّعبير عن العاطفة و الشعور المتّقد و هو يعبّر عن الفكرة الإصلاحية في أسلوب أدبي و صور بيانية تنمّ عن ثقافة عربية متنوّعة تنوّع منابعها و تعدّدها، ما أهّله أن يكون في طليعة كتّاب البصائر البارعين و هو بذلك ينبغي أن يعدّ أكبر كاتب عرفته البصائر.يروم هذا البحث تسليط الضوء على الناحية الأدبية في مقالات الشيخ الإبراهيمي الإصلاحية معتمدا في ذلك على جملة من العناصر وهي: الالتزام والاقتباس والسخرية الّتي طبعت أسلوبه.

Abstract

The article is the first expressive tool used by Algerian intellectuals of different literary backgrounds and trends, thus the close connection that linked the educated vanguard and the popular class. The literature of the article was about reform and politics, defending and demanding the interests of the people, and affirming in its content a fundamental meaning - representing the essence of the reform battle- by defending Islam, the Arabic language and the national character and the consolidation of these components in the hearts of Algerians. The early twenties of the last century knew prominent writers, some of whom were at the forefront of Arab writers in the modern era, such as Sheikh Al-Bashir Al-Ibrahimi, who filled Algeria with his elegant literary articles. It represents the model of the literary reformist essay in its most beautiful form. Sheikh Al-Brahimi used to combine the care of drafting with the expression of emotion and ardent feeling, expressing the reformist idea in a literary style and graphic images reflecting a diverse Arab culture, its diversity and its multiplicity, what qualified him to be at the forefront of writers of brilliant insights. Thus, he should be considered the greatest foresight writer ever.

This research aims to shed light on the literary aspect of Sheikh Al-Ibrahimi's reformist articles, relying on a set of elements: commitment, quotation, and irony that characterized his style.

Keywords

The reformist article Literary style
El ibrahimi
Commitment

* المؤلف المرسل

1- مقدّمة

تناولت مقالات الإبراهيمي قضايا مختلفة، و قد مثّلت هذه القضايا، سواء منها السّياسية أم الاجتماعية أم الفكرية... مدار كتاباته بل حياته كلّها، فقد عايش الإبراهيمي في أدبه أحداث مجتمعه و تفاعل معها، وهو حين يتناول قضيّة الجزائر يتناولها وسط ظروفها القاسية ويعرضها على حقيقتها و يفسّر أبعادها و معضلاتها " ويظهر الإبراهيمي-في حقيقة ناصعة-أديبا ذابّا عن حوض أمّته يخدم استجابتها ومآربها ومتطلّباتها بتفاعل مستمرّ، و يظهر أيضا أسيرا لدواعي الإحساس بالمسؤولية تجاه الكلمة الثّورية و الانفعال بها، ملتمسا لأسباب الثّورة وإرهاصاتها، و أصبحت هذه الدّواعي و الأسباب قضاء وقدرا عليه وحتما محتوما..." (عباس، 1984، صفحة 345)

2- الالتزام في مقالات الإبراهيمي

ألزم الإبراهيمي نفسه بالذّود عن حياض أمّته، وعمل على معالجة قضاياها السّياسية والاجتماعية (عزوز، 1999) فكانت مقالاته سجلاّ صادقا نقل لنا مختلف الأحداث التّاريخية "ولذلك تعتبر مقالاته هذه من الوجهة التّاريخية ذات قيمة عظيمة وهي تعبّر بصدق عن موقف الشّعب الجزائري كلّه الّذي قلّ المعبّرون عنه في تلك الفترة..." (مرتاض ع.، 1983، صفحة 141) و كان الإبراهيمي يدرك تمام الإدراك جسامة المسؤولية الملقاة على عاتقه وأقرانه ويعي خطورة السلاح الّذي وهبه إيّاه الله، يقول "ألا إنّ فرسان الكلام والأقلام كفرسان النّزال والعراك في كثير من الخصائص، وكما أنّ الكميّ المعلم يضيق بالفاقة ذرعه، فتهون عليه بيضته ودرعه، وهيهات أن يهون عليه سيفه و رمحه، لأنّ وظيفة البيضة والدرع أن يحفظا على الكميّ في ساحة الرّوع مهجته، وهي أهون مفقود في تلك الساعة. أمّا وظيفة السّيف والرّمح فهي الإنكاء في العدوّ، والإنكاء في العدو هو الغاية الّتي تنتهي إليها شجاعة الشّجاع، كذلك حملة الألسنة و الأقلام يجب أن يكونوا، ليحقّقوا التّشبيه الّذي تواطأت عليه آداب الأمم، فلتأتهم المصائب من كلّ صوب، و لتنزل عليهم الضرورات من كلّ سماء، وليخرجوا من كلّ شيء إلاّ شيئين: القلم و اللّسان... إنّ بيع القلم و اللّسان أقبح من بيع الجندي لسلاحه..." (البصائر، 1947، صفحة 9) كان الإبراهيمي رائد جمهوره و قائدا له في أدبه و فكره يعمل على إيقاظ الشّعور الجمعي في أمّته و شعبه، و يستمدّ تجربته من الواقع يصدر عنه و يورد إليه (بن سمينة م.، 2007، صفحة 285)، فهو متّصل اتّصالا وثيقا بالمجتمع، ومطّلع على إيجابياته وسلبيّاته و كذا المشكلات المحيطة به. وأوّل تلك المشكلات، مشكلة الاستعمار، المحور الرّئيس الّذي تتحرّك حوله سائر الانحرافات في شتّى الميادين من فقر وجهل وانحلال خلقي ومضايقة الدّين ومطاردة اللّغة... والّتي تهدف أوّلا وأخيرا إلى طمس الهويّة العربية الإسلامية للشّعب الجزائري "...قولوا للّذين يريدون طمس التّاريخ، و محو الخصائص النّسبية و المعاني الإرثية: اطمسوا ما شئتم ممّا سطّرته الأقلام في الكتب، أمّا ما كتبته يد الله في النّفوس فمحال أن تطمسوه و لأنتم أعجز من ذلك، ولا كرامة، وإنّ نبض عرق واحد بخصيصة دموية ليضيع عليكم جهد العقول والسّنين...". (البصائر، 1947، صفحة 2)

إنّ ثقة الإبراهيمي في قضاء الله و قدره لا تمنعه من أن يوجّه النّصح إلى شباب الأمّة لاسيما الطّلبة منهم و يبصّرهم بالوضعية العامّة للأمّة و المخاطر الاستعمارية الّتي تحيط بها في مقال له (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 215) أقام فيه البراهين الدّامغة والحجج القويّة الّتي تثبت ضرورة اتّخاذ العلماء مرجعية للفصل في القضايا الكبرى لأنّ إسناد الأمر لغيرهم هو سبب بلايا الأمّة (بوزوينة، 1988، صفحة 12). والمقال و إن كان إصلاحيّا فإنّه يحمل أبعادا تاريخية، ذلك لأنّ الإبراهيمي كان دائم الرّبط بين حاضر الأمّة وماضيها، يستلهم من الأخير العبر والدّروس ليصلح الآفات الّتي استشرت في المجتمع الجزائري و الّتي يردّها إلى الاستعمار في غير ما مناسبة، فها هو في ذكرى مجازر الثّامن ماي يواجه الاحتلال مرّة أخرى "اثنان قد خلقا لمشأمة: الاستعمار والحرب، ولحكمة ما كانا سليلي أبوّة، لا يتمّ أوّلهما إلاّ بثانيهما، ولا يكون ثانيهما إلاّ وسيلة أوّلهما، وقد تلاقت يداهما الآثمتان في هذا اليوم، في هذا الوطن. هذا مودع إلى ميعاد فقعقعة السّلاح تحيّته، وذلك مزمع أن يقيم إلى غير ميعاد، فجثث القتلى من هذه الأمّة ضحية". (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 361).

والإبراهيمي وهو يصف شؤم الاستعمار على الإنسانية يستخدم العبارات والأساليب الّتي من شأنها أن توقظ النّفوس وتبعث الهمم لتثور على المساوئ الاجتماعية من جهة ومساوئ الاستعمار ومخلّفاته من جهة ثانية "يا يوم! لله دماء بريئة أريقت فيك، ولله أعراض طاهرة انتهكت فيك، ولله أموال محترمة استبيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك...يا يوم! لك في نفوسنا السّمة الّتي لا تمحى، والذّكرى الّتي

لا تنسى، فكن من أيّة سنة شئت فأنت يوم 08 مايو وكفى، وكلّ ما لك علينا من دين أن نحيي ذكراك و كلّ ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطّروس لئلاّ يمسحه النّسيان من النّفوس" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 264).

إنّ المقالات الّتي تبرز مدى التزام الإبراهيمي بقضايا أمّته من الكثرة بحيث لا يمكننا حصرها، ذلك لأنّه عاش بها ولها، وأوقف حياته وأدبه عليها. وحسبنا أن نقول"إنّ أدب الإبراهيمي لا يحتاج إلى تحليل ولا إلى مناقشة من أجل الكشف عن التزامه لأنّه أدب أقلّ ما يقال عنه أنّه أدب تتوفّر فيه ضرورة احتكاك الأديب بمشكلات عصره و قضاياه المختلفة" (عباس، 1984، صفحة 337). احتكّ الشّيخ بمشاكل قومه وعمل بكلّ ما أوتي من علم و حبّ للوطن و شجاعة وإقدام على تغيير أوضاعه المزرية تمهيدا للخطوة الموالية، تلك هي الحرّية. وقد صوّب اهتمامه إلى فئة الشّباب إيمانا منه أنّ "الشّباب في كل أمّة هم الدم الجديد الضّامن لحياتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصّحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لمآثرها، وهم المصحّحون لأغلاطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 210). ولأنّهم كذلك يخصّهم الشّيخ بمقال (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 578) يسطّر فيه الخطوط العريضة الّتي تجعلهم إن هم التزموا بها، أهلا لحمل الأمانة "أتمثّله متساميا إلى معالي الحياة عربيد الشّباب في طلبها، طاغيا عن القيود العائقة دونها، جامحا عن الأعنّة الكابحة في ميدانها...أتمثّله مقداما على العظائم في غير تهوّر، محجاما عن الصّغائر في غير جبن، مقدّرا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أوّل الفكر آخر العمل.

أتمثّله واسع الوجود، لا تقف أمامه الحدود، يرى كلّ عربيّ أخا له أخوّة الدّم وكلّ مسلم أخا له أخوّة الدّين، وكلّ بشر أخا له أخوّة الإنسانية، ثمّ يعطي لكلّ أخوّة حقّها فضلا وعدلا..."

هذه المقالة- وغيرها كثير- حمّلها الشّيخ نصائح أبوية وجّهها للشّباب الّذي يطمح إلى العيش الكريم، وما ذلك إلاّ دليل آخر على التزام الكاتب بقضايا وطنه، وانشغاله بما يشغل أبناءه شبابا وشيبا، وقد لازمته هذه 'الخاصّية' في جميع أطوار حياته، وكان يبثّها عبر مقالاته بأسلوب جزل، قويّ، يغلب عليه التّأنّق اللّفظي" والبيان السّاحر الّذي لا تتعثّر كلماته، و لا تكبو عباراته، ولا تثقل جملاته، وإنّما يمضي هيّنا ليّنا، عذبا سائغا فيه موسيقى لطيفة للأذن، وفيه حلاوة لذيذة للّسان، و فيه متاع للعقل، و فيه منطق قويّ ينافح عن الحقّ" (مرتاض ع.، 1985، صفحة 142). ومردّ هذا الأسلوب الأدبي الرّاقي الّذي خوّل الشّيخ الرّيادة في الأدب الجزائري الحديث إلى ارتباطه الوثيق بالموروث الأدبي القديم شعرا ونثرا، و تشبّثه بالقرآن الكريم والسنّة النّبوية والاقتباس من هذه المنابع الثرّة.

3- الاقتباس عند الإبراهيمي

إنّ شيوع ظاهرة الاقتباس في كتابات روّاد الإصلاح ليس أمرا غريبا في شيء بالنّظر لتمسّك هؤلاء بالقرآن الكريم وبالتّراث الأدبي القديم وتعهّده قراءة وحفظا ممّا جعلهم يستلهمون تلك الآثار الأدبيّة فيقتبسون من أشهر نصوصها، ويقتبسون من آيات القرآن الكريم. ولم يكن الإبراهيمي بدعا في الكتّاب، حيث نلفي مقالاته تعجّ بالاقتباسات، وقد حالفه التفوّق في هذه النّاحية أيضا حيث أحسن توظيفها و أحكم استخدامها فهو حين يقتبس اللّفظة أو العبارة "ينزلها المنزلة الحسنة اللاّئقة بها و يصيّرها ملكا له في تركيب جميل، و يبقى بذلك أسلوبه قويّا متينا مبنيّا لا يساوره ضعف ولا ارتخاء و لا فتور ولا نحول" (عباس، 1984، صفحة 331).

إنّ الباحث لا يكاد يقرأ مقالة من مقالاته دون أن يجد فيها اقتباس، ولنا في مقاله "اللّغة العربية في الجزائر حرّة ليس لها ضرّة" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 250) مثالا حيّا على ما نذهب إليه، هذه الأخيرة تكتظّ بالعبارات المقتبسة من النّصوص العربية القديمة. وما يسري على هذه المقالة ينطبق على مجموعة الخواطر الأدبية- الّتي اعتبرها بعض الدّارسين ضربا من المقامات- فالمطّلع على "سجع الكهّان" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 593) يلحظ منذ الوهلة الأولى أثر آي القرآن فيها "لا أقسم بذات المودع في التّجاويف والتّلافيف و بالمغيرات صبحا عليها التّجافيف..."فالكاتب يستفتح المقامة بالقسم إقتداء ببعض سور القرآن الكريم، كما أنّه يقتبس عبارة "المغيرات صبحا" من قوله تعالى:﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)﴾(سورة العاديات، الآية:1-3). و قد كان اقتباسه من القرآن الكريم يضفي على أسلوبه جمالا وقوّة لاسيما وأنّه كان يحسن توظيف تلك الاقتباسات (عباس، 1984، صفحة 326). فهو حين يصف حال الأمّة وما تكابده من ويلات الحرب في قو"أمّة كالأمم حلّت بها ويلات الحرب كما

حلّت بغيرها، وذاقت لباس الجوع والعري والخوف..." (البصائر، 1948، صفحة 2) يعود بنا لقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (سورة النحل، الآية:112)

وحين يقول مدحضا ادّعاءات المحتلّ "كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبّارين" (البصائر، 1950، صفحة 01). يذكّرنا بقوله تعالى: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (سورة الكهف، الآية:5). ولمّا يصف حال الشّمال الإفريقي في قوله "هذا الشّمال قد أصبح أهله كأصحاب الشّمال، في سموم من الاستعمار وحميم و ظلّ من يحموم، لا بارد و لا كريم، أفسد الاستعمار أخلاقهم، و وهن عزائمهم...وضرب بينهم وبين العلم بسور ليس له باب. يقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)﴾ (الواقعة، الآية:41-44) وقوله- جلّ من قائل-: ﴿... فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (سورة الحديد، الآية:13).

وهو حين يعالج الواقع الّذي أحدثه الاستعمار الأجنبي من تمزّق و تفرّق في المجتمعات العربية و الإسلامية عامّة و الجزائر بخاصّة يقول" وقد انقرضت تلك الفرق و انقرض بانقراضها سبب جوهري من أسباب التفرق، بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم و جعل بأسهم بينهم شديدا، وألهاهم بما يضرّ عمّا ينفع". (البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، د.ت، صفحة 97)

وفي ذلك اقتباس واضح من قوله تعالى: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة الحشر، الآية:14)

و هو حين يقول "إنّ الأمم الضّعيفة قد لدغت من جحر واحد مرّتين فاحذروا الثّالثة" (البصائر، 1950، صفحة 2)". يقتبس من قول الرّسول-صلّى الله عليه وسلّم "لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين".

و لم يقتبس الإبراهيمي من القرآن الكريم و الحديث الشّريف فحسب، بل استعان في كتاباته بالنّصوص الأدبية القديمة أيضا، من ذلك قوله "و من كان مثلك لم يضرّ عدوّا، و لم يسرّ صديقا" (البصائر، 1948، صفحة 3). فيه اقتباس من قول شبيب بن شيبة (ت 170ها) في خالد بن صفوان "ليس له صديق في السرّ و لا عدوّ في العلانية" (بن عبد ربّه، 1404هـ-1987م، صفحة 270). كما نلحظ تأثّره بالأدب العربي القديم والحديث النّبوي الشّريف في أسلوبه الخطابي الّذي يماثل به أسلوب الخطباء البلغاء، يقول متحدّثا عن التّعليم العربي "وأمّا بعد فهذه فصول بعض أجزائها حكاية صادقة، وبعضها تجريح مؤلم، وبعضها رأي صريح وبعضها نقد هادي..." (البصائر، 1948، صفحة 1) وممّا جاء في ردّه على الزّاهري قوله "كتبت أيّها الشّيخ كثيرا من الباطل و سنكتب قليلا من الحقّ..." (البصائر، 1948، صفحة 2) ويقول مخاطبا الشّباب "العلم! العلم! أيّها الشّباب! لا يلهيكم عنه سمسار أحزاب ينفخ في ميزاب ولا داعية انتخاب في المجامع صخّاب..." (البصائر، 1948، صفحة 2) و يوجّه خطابه للعرب حين يتحدّث عن القضيّة الفلسطينية "أيّها العرب! إنّ قضيّة فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم و هممكم وأموالكم ووحدتكم، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم، و إنّما هي للعرب كلّهم..." (البصائر، 1947، صفحة 3) إنّ ظاهرة الاقتباس لم تثقل أسلوب الإبراهيمي ولم تفسده بالرّغم من ملازمته لها، ذلك لأنّه كان يحسن توظيفها بما يضفي على أسلوبه القويّ مزيدا من القوّة والرّصانة و الجمال.

4- أسلوب الإبراهيمي

جمع الإبراهيمي بين المعاني والجمال، بين التّعبير عن الحقائق والأفكار و بين الجمال الأدبي في الصّياغة، فسلاسة الأسلوب وجودته وترابط العبارات يجعل النّص متماسكا، متناسقا، وتجلّى ذلك في حسن التّخلّص والتّرفّق في الانتقال من فكرة إلى أخرى ومن جزء إلى آخر بحيث لا يشعر القارئ بفجوة في تسلسل الخطاب أو عدم الانسجام والتّكامل ممّا يكسبه وحدة عضوية ذات بعد نفسي مهمّ، وقدرة و فعّالية في مجال التّأثير في المتلقّي (عزوز، 1999، صفحة 5). والإبراهيمي يراعي في مقالاته- على اختلاف موضوعاتها- التّوليد في المعاني والصّيغ، ويهتمّ بالمجاز اهتماما شديدا، و يقابل بين المعاني والجمل (ركيبي، 1974، صفحة 47)، ما يجعل أسلوبه يجاري أسلوب البلغاء العرب ويضاهيه ،كما يراعي طبيعة الموضوع الّذي يتناوله، فتختلف بذلك اللّهجة الّتي يستعملها، فتتأرجح بين الأسلوب الحادّ و بين السّخرية و النّزعة التّعليمية (ركيبي، 1974، صفحة 5)، إذ كان الإبراهيمي "يرمي خصمه بألفاظ

حداد كأنّها شفرات ماضية أو شظايا محرقة" (مرتاض ع.، 1983، صفحة 378). لاسيما و أنّ اللّغة كانت تسعفه بتعابير ملتهبة تذيب الحجر (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 181). يقول مخاطبا المحتلّ الغاصب "زيّن للاستعمار سوء عمله فطغى وبغى وكفر وعتا وأتى من الشرّ ما أتى ...إنّ الاستعمار لا يؤمن بالحالة حتّى نسأله الإنصاف لدينه الحقّ، ولكنّه يؤمن بالقوّة، فلنحذّره عواقب الاغترار". واللّهجة ذاتها يستعملها حين يحذّر من الاستعمار "يا هؤلاء، إنّ الاستعمار شيطان، وإنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّا، و إنّ الاستعمار شرّ ومحال أن يأتي الشرّ بالخير، و محال أن تجني من الشّوك العنب" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 321).

بمثل هذا الأسلوب الحادّ كان الإبراهيمي يعالج قضايا أمّته، أسلوب ينمّ عن إيمانه بالقضيّة ومشروعيتها. وقد يصعّد تلك اللّهجة أحيانا حتّى تبلغ درجة السّخرية، هذه الأخيرة الّتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالأسلوب الحاد ولا تختلف عنه كثيرا لأنّ استخدام سلاح السّخرية في الأدب، هو في حدّ ذاته ضرب من العنف بما تحمله من تهكّم معنوي شديد اللّذع ثقيل الوطء عنيف الوقع (عزوز، 1999، صفحة 3). ويعدّ مقال "عبد الحيّ الكتّاني" (عزوز، 1999، صفحة 615) مثالا لما بلغته السّخرية عند الإبراهيمي، فقد اتّبع فيه التّحليل الهزلي- على غرار الجاحظ– الّذي كان يروّح على القارئ بمزجه الهزل بالجدّ- وقد اجتمع فيه من خفّة الملاحظة وجمال النكتة ما جعل بعض الباحثين يصفونه بأنّه "من أجلّ ما كتب في هذا الفنّ إطلاقا من حيث الإمتاع الفنّي، وروعة التّعبير، جمال النّكتة، وخفّة الملاحظة وبراعة الخيال، وحسن الاستدلال" (مرتاض ع.، 1983، صفحة 385). حلّل الإبراهيمي في مقالته تلك شخصيّة عبد الحيّ حتّى أنّ تحليله السّاخر طال الاسم أيضا "... وإنّ اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلاّ اسمه الأوّل! فهو عبد لعدّة أشياء جاءت بها الآثار، وجرت على ألسنة النّاس ولكن أملكها به الاستعمار...!" ثمّ يصف حياة الكتّاني الأدبية و العلمية فيقول "جريدة السّعادة لأنّها تطريه، و قرية بوسعادة لأنّها تؤويه، و نسخة من البخاري بخطّ ابن سعادة لأنّ الخزانة الجليلة تحويه!" يسخر من الكتّاني كونه اغترّ بإطراء جريدة السّعادة -ذات الاتّجاه الاستعماري-له، وأنّه استكان إلى بوسعادة الّتي عمّها الجهل لتضليل أهلها بأفكاره، ولأنّه جمع مكتبة ضخمة لكنّه لم يحسن استغلال كنوزها.

على أنّ عنصر السّخرية كان من الكثرة بحيث أصبح "خاصية قائمة لا تكاد تخطئ مقالة من مقالات الإبراهيمي الّتي كان يتهجّم فيها على أيّ شخصية أو هيئة أو سلطة، بما في ذلك الحكومة الاستعمارية نفسها" (عزوز، 1999، صفحة 5). و هي سخرية تجد طريقا سهلا إلى قلوب القرّاء و نفوسهم فيبلغ الكاتب هدفه التّقويمي.

والإبراهيمي يعتمد في مقالاته منهجا علميّا منطقيّا، يظهر ذلك جليّا في أفكاره المرتّبة والمصنّفة تصنيفا منهجيّا (مرتاض ع.، 1983، صفحة 372). ويعكس مقال "الرّجال أعمال" (البصائر، 1948، صفحة 2) المستوى الرّاقي الّذي بلغته كتاباته. فقد افتتحها قبل أن يتحدّث عن 'ابن عاشور'(شيخ جامع الزيتونة) وابن باديس (رئيس معهد قسنطينة) بمقدّمة يؤكّد فيها موضوعيّة البصائر و صدقها "البصائر ميزان حقّ، و لسان صدق فهي تزن الرّجال بأعمالهم الجليلة، ومواقفهم الشّريفة، و تقوّمهم بالقيم الإيجابية، لا بالقيم السّلبية... والبصائر لا تأبه للصّيت الطّائر في المجامع، والاسم الدّائر على الألسنة والشّهرة السّائرة في الآفاق، ما لم يكن من ورائها أعمال نافعة تشهد، وآثار صالحة تعهد و ثمرات طيّبة تجنى..." وبعد تلك المقدّمة الّتي يتحدّث فيها عن البصائر، يخصّ القسم الأوّل من المقال للحديث عن الشّيخ ابن عاشور وأعماله، ونشاطه العلمي في الزيتونة، ليعرض بعدها أعمال الشّيخ ابن باديس و جهوده الإصلاحية، وهو ما يثبت أنّ الإبراهيمي كان يسير في مقالاته وفق البناء الفنّي المتعارف عليه من مقدّمة وعرض وخاتمة حرصا منه على الإطار الفنّي العام للمقالة من حيث تصميم الأفكار وترتيبها وعرضها (مرتاض ع.، 1983، صفحة 372). وهو في هذا كلّه يميل إلى الزّينة والتّأنّق واستعمال الغريب، هذا الأخير الّذي كان شائعا في أعماله، ومردّه- في نظره- ليس إلى الأعمال في حدّ ذاتها ولكن إلى تكاسل المتلقّين و ضعف زادهم من العربيّة و قلّة تمرّسهم اللّغوي ممّا جعلهم يستصعبون السّهل و يستوحشون المألوف "و في هذه الفصول من لبوس الألفاظ ما يعدّه المتخلّفون من كتّابنا غريبا، وما غرابته في أذواقهم إلاّ كغرابة الأعلاق النّفيسة في أسواقهم" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 586). فالكاتب يعيب على أقرانه عدم اهتمامهم بالإرث الأدبي القديم و الإفادة منه، وهو يرمي إلى إحياء العربية و تقديم النّموذج الأدبي للكتّاب لينسجوا على منواله، كما يهدف إلى التّأثير فيهم بنقلهم إلى الجوّ القديم الزّاخر بقيمهم الدّينية و

أصولهم الحضارية (بن سمينة م.، 2007، صفحة 278). و حتّى يتخطّوا هذه العقبة و يتخلّصوا من تلك العراقيل، و تتحقّق بذلك أهدافه يسدي الإبراهيمي لأولئك 'الأدباء الكسالى' النّصح بـ "...أن لا يقنعوا من الأدب بما يلقاهم منه في أيّام الطّلب في الكتب المقرّرة، فإنّ ذلك القدر النزر لا يربّي ملكة، ولا يصقل ذهنا، و لا يكوّن أديبا إنّما يربّي الملكات الأدبية الصّحيحة و يقوّمها الإدمان، إدمان القراءة المتأنّية المتدبّرة لكتب الأدب الحرّة، الأصيلة، والاستكثار من حفظ الشّعر واللّغات والأمثال و معرفة مواردها و مضاربها، والتّنبيه لمواقع استعمالها من كلام البلغاء من شعراء وخطباء و كتّاب ثمّ ترويض القرائح والألسنة والأقلام على المحاذاة ذلك أدنى أن تستحكم الملكة وتنقاد القريحة فتجري الأقلام على مداد ويمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد، و توضع الكلمات في الجمل، في موضع اللآليء من العقد، وما جاء حسن العقد منظوما إلاّ من حسنه منثورا، ثمّ تكون الحكم و الأمثال و النّكت كفواصل الجمان، في العقود الثّمان" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 665).

ويغلب عنصر الغريب على الكثير من مقالات الإبراهيمي، نذكر على سبيل المثال مقاله "الشّباب الجزائري"، و"مناجاة مبتورة لدواعي الضّرورة" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 584، 652)، "الرّجال أعمال" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 625)، وغيرها من المقالات، على أنّ الظّاهرة أكثر ما تبرز في مجموعة "سجع الكهّان" (البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، 2007، صفحة 593) الّتي بناها على الأسجاع وبعضا من الغريب وهو يردّه إلى ابتعاد الأدباء عن اللّغة و تقاعسهم عن الاستفادة من دررها، يشير إلى ذلك في مقدّمة المقال "هذه فصول إن لا تكن فيها روح الكاهن، ففيها من الكاهن سجعه، و إن لا يجد في جوانبها صدى الكهانة، ففيها من ذلك الصّدى رجعه، فيها الزّمزمة المفصحة، والتّعمية المبصرة، و فيها التّقريع و التّبكيت، و فيها السّخرية و التّنكيت، و فيها الإشارة اللاّمحة، و فيها اللّفظة الجامحة. وفيها العسل للأبرار وما أقلّهم. وفيها اللّسع للفجّار، وما أكثرهم. فعلّها تهزّ من أبناء العروبة جامدا، أو تؤزّ منهم خامدا، فنجني من ثمرة النّية، ونغيّر أواخر هذه الأسماء المبنية. " إنّ المقالة تطفح بالأسجاع و ألوان البديع و البيان، إضافة إلى الغريب، و ما ذلك إلاّ لأنّ صاحبها كان ذا صلة وثقى بالتّراث الأدبي القديم، ساعدته في ذلك ذاكرته القويّة "فإذا رأيت أسلوب الإبراهيمي قويّا جزلا و متينا رصينا، فبما حفظ للشّنفرى و امرئ القيس، ولمن جاء بعدهما من فحول الشّعراء عبر العصور الأدبية المختلفة، و إذا رأيته يجنح أحيانا إلى السّجع، فلا تحسبنّ ذلك منه تكلّفا وتصنّعا وإنّما هو أمر طبيعي بالقياس إلى أديب ينبغي أن يكون قد حفظ أطرافا صالحة من نهج البلاغة و متون المقامات وأحاديث الأعراب" (مرتاض ع.، 1985، صفحة 127).

5- خاتمة

إنّ حافظة الإبراهيمي القويّة، وموهبته الفذّة وقدرته الكبيرة على الإبداع... عوامل تضافرت لتجعل منه 'أمير البيان العربي' بالجزائر.

الإبراهيمي يعبّر عن الفكرة الإصلاحية في أسلوب أدبي و صور بيانية تنمّ عن ثقافة عربية متنوّعة تنوّع منابعها و تعدّدها.

الإبراهيمي كان شديد الحرص على الأساليب الأنيقة الرّاقية، ولم يكن يرضى بالإسفاف في أسلوبه، و الاضطراب في لغته، والسّطحية في أفكاره، فمقالاته كانت معرضا للعربية الرّاقية في الألفاظ والمعاني والأساليب.

الشّيخ الإبراهيمي لم يلزم نفسه بتلك الخصائص الفنّية فحسب، بل فرضها على سائر كتّاب البصائر، فالمتصفّح لأعمدتها يلحظ المنهج ذاته شكلا ومضمونا، ذلك لأنّه لم يكن يقبل من الأعمال إلاّ جيّدها ولم يكن متساهلا مع كتّاب البصائر، فقد كان يغريهم بالتّجويد في الأسلوب والارتقاء إلى المستوى العالي من فنّ القول.

قائمة المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم رواية ورش.

1) أحمد عزوز. (01 ديسمبر, 1999). المقالة الأدبية في الجزائر(1945-1953): مميّزات خطابها الإقناعي. مجلة الموقف الأدبي (العدد 344).
2) البصائر. (1947). جريدة البصائر س2 (العدد 01).
3) البصائر. (1948). الجزائر: س2 (العدد 35-41)..
4) البصائر. (1950). الجزائر: س2 (العدد 111- 118).
5) عبد الحميد بوزوينة. (1988). بناء الأسلوب في المقالة عند الإبراهيمي. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
6) عبد الله ركيبي. (1974). تطوّر النثر الجزائري الحديث. ليبيا- تونس: الدار العربية للكتاب.

7) عبد الملك مرتاض. (1985). نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1925.1954)، (ط2). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.
8) عبد الملك مرتاض. (1983). فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1945). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
9) محمد البشير الإبراهيمي. (د.ت). آثار الإبراهيمي (ط1). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
10) محمد البشير الإبراهيمي. (2007). عيون البصائر. الجزائر: دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع.
11) محمد بن سمينة. (2007). أسس مشروع النهضة عند الإمام ابن باديس (المجلد ج2). الجزائر: منشورات المجلس الإسلامي الأعلى.
12) محمد بن عبد ربّه. (1404هـ-1987م). العقد الفريد (المجلد ج2). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
13) محمد عباس. (1984). البشير الإبراهيمي أديبا. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.